الخطبة الأولى

أيُّهَا المُؤمِنونَ: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقُصُّ لأصحابِه رَضيَ اللهُ عنهم قَصصَ المؤمنينَ مِن الأُمَمِ السَّابقةِ، وصَبْرَهم على الأذى وشِدَّةِ العذابِ مِن المشْركين والكفَّارِ، وتَحقُّقَ نَصرِ اللهِ لهم، وكلُّ ذلك لِيتأسَّى المسْلِمون بهم ويَصبِروا حتَّى يَرسَخَ الإيمانُ في قُلوبِهم.

وتبدأُ القِصَّةُ كما قال تعالى: (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فما هي بدايةُ الأحداثِ؟ ومن هم أصحابُ الأُخدودِ؟

أيُّهَا المُؤمِنونَ: في حديثٍ عَنْ صُهَيْبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ".

فيُخبِرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه كان مَلِكٌ مِن مُلوكِ الأُمَمِ السَّابقةِ، «وكان له سَاحِرٌ» يقومُ بأعمالِ العِرافةِ والكِهانةِ والتَّمويهِ على النَّاسِ والتَّخييلِ لهم، على ما كان مَشهورًا في تلكَ الأزمانِ، «فلمَّا كَبِر» ذلك السَّاحرُ في السِّنِّ وتَقدَّمَ به

العُمرُ، أخبَرَ الملِكَ أنَّه قدْ كَبِر سِنُّه، ويَخْشى أنْ يَنقطِعَ عِلمُه عنهم بالمرضِ والموتِ، وطلَبَ منه أنْ يُرسِلَ له غُلامًا، وهو الصَّبِيُّ مِن الفِطَامِ إلى البُلوغ، والمرادُ وَلَدٌ يُدرِكُ ويَفهَمُ حتَّى يُعلِّمَه السِّحرَ، فبَعَث إليه الملِكُ غُلامًا يُعلِّمُه، وكان في طَريقِ الغُلامِ وهو ذاهبٌ إلى السَّاحِرِ «رَاهِبٌ» وهو المتعبِّدُ مِن النَّصارَى المتخلِّي مِن أشغالِ الدُّنيا التارِكُ لِمَلاذِّها، فلمَّا عَلِم الغلامُ به قَعَد إليه يَسمَعُ مِن كَلامِه ووَعَظَه وما عِنده مِن عِلمٍ عن اللهِ عزَّ وجلَّ، فكان الغُلامُ إذا أراد أنْ يَصِلَ إلى السَّاحِر مرَّ بالراهِب؛ لكونِه في طريقِه، وقَعَد إليه ليَأخُذَ مِن عِلمِه، فإذا أتَى السَّاحِرَ ووَصَل إليه، ضرَبه لِتأخُّرِه عليه، فشَكَا الغلامُ ذلك إلى الرَّاهِبِ، فأمَرَه الرَّاهبُ أنَّه إذا تَأخَّرَ على السَّاحرِ، فلْيَتعذِرْ له أنَّ التَّأخيرَ في حُضورِه بسَببِ أهلِه، وكذلك العكسُ، فلوْ سَألَه أهلُه عن سَببِ تَأخيرِه، فلْيَتعذِرْ لهم بأنَّ السَّاحرَ سَببُ تَأخيرِه، ولعلَّ الرَّاهبَ أمَرَه بذلك -مع أنَّه كذِبٌ- لأنَّه رأى أنَّ المصلحةَ في هذا تَرْبو على مَفسَدةِ الكذبِ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ ذلك تَوريةً لا كذِبًا؛ والتَّوريةُ في قولِه: «حَبَسَني أهْلي» أبيَنُ وأوضَحُ؛ لأنَّ الأهلَ حَقيقةً إنَّما هُم المرشِدون له إلى السَّعادةِ، فالمقصودُ بلَفظِ الأهلِ الراهبُ، وكذلك قولُه لأهلِه: «حبَسَني السَّاحرُ» يُمكِنُ تَأويلُه على التَّوريةِ بأنَّه لا يَصِلُ إلى أهلِه إلَّا بعْدَ المُكثِ عندَ السَّاحرِ

والرَّاهبِ جميعًا، فيَصدُقُ قولُه: «حَبَسَني السَّاحرُ»؛ لأنَّه كان أحدَ الحابسينِ.

فبَيْنَما هو على ذلك» مُتردِّدًا بيْن أهلِه والسَّاحرِ والرَّاهبِ مدَّةً » مِن الزَّمنِ، إذْ خَرَجَت على النَّاسِ «دابَّةٌ عَظيمةٌ» قيل: كانت أسدًا، وقيل: حيَّةٌ (ثُعبانٌ)، فخافوا منها، فمَنَعتْهم مِن الوصولِ لِحوائجِهم، فقال الغلامُ في نفْسِه عِندما رَأى الدَّابَّةَ: اليومَ أَعلَمُ السَّاحِرُ أفضَلُ أمِ الرَّاهِبُ أفضَلُ؟ فيَنكشِفُ لي أيُّهم أنفَعُ اتِّباعًا واقتداءً به، فأمسَكَ الغلامُ بحَجرٍ، ثمَّ دعا اللهَ فقال: «اللَّهُمَّ إنَّ كان أمرُ الرَّاهبِ أحَبَّ إليك مِن أمرِ السَّاحِرِ» يُريدُ أيُّهما الَّذي على حقٍّ؟ «فاقتُلْ هذه الدَّابَّةَ» أي: عَقِبَ وُصولِ الحَجَرِ إليها؛ ليكونَ ذلك آيةً على أَحبِّيَّةِ الرَّاهبِ عندَك، «فرَماها» الغلامُ بالحجرِ «فقَتَلها» بتِلك الرَّمْيَةِ، ومَرَّ النَّاسُ في طَريقِهم، فجاء الغُلامُ إلى الرَّاهبِ، فأخبَرَه بما فعَله بالدَّابَّةِ وبما قاله ودَعا به، «فقال له الرَّاهبُ: أَيْ بُنَيَّ» وهو نِداءُ شَفقةٍ وتَلطُّفٍ به، «أنتَ اليومَ أفضلُ مِنِّي» أي: أعظَمُ دَرَجةً ومَنزِلةً عندَ اللهِ تعالَى «قد بَلَغ مِن أمرِك ما أَرَى» مِن كمالِ اليَقِينِ وصِدْقِ الاعتِقادِ، وما مَنَّ اللهُ به عليه مِن كَراماتٍ ومُعجِزاتٍ، «وإنَّك سَتُبتَلَى» أي: سيَفعَلُ اللهُ بكَ ما جرى مِن سُنَّتِه في أنبيائِهِ، وأوليائِهِ مِن ابتلائِهِم بسُفهاءِ قَومِهم، «فإنِ ابتُلِيتَ فلا تَدُلَّ علَيَّ» خَشيةَ أنْ يَصِلوا إليه، فيَفتِنوه في دِينِه.

أيُّهَا المُؤمِنونَ : وانتَشَرَ أمرُ الغلامِ في النَّاسِ، وصار يُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ، أي: جَعَلَه اللهُ سَببًا في شِفاءِ النَّاسِ، فكان يَدْعو لهم، فيَستجيبُ اللهُ دُعاءَه، والأَكْمَهُ: هو الَّذي وُلِد أَعْمَى، والأَبْرَصُ هو الَّذي ابْيَضَّ جِلْدُ جَسَدِهِ، وأصبَحَ يُداوِي النَّاسَ مِن جميعِ الأمراضِ والأسقامِ، حتَّى سَمِع به «جَلِيسٌ لِلْمَلِك» أحدُ خَواصِّه والمُقرَّبين إليه، وكان قدْ فقَدَ بصَرَه، فأتاه هذا الرَّجلُ بهدايَا كثيرةٍ، وأخبَره بأنَّها كلَّها له إن شَفَاه، فردَّ الغلامُ بأنَّه لا يَشفِي أحدًا، إنَّما الَّذي يَشفِي هو اللهُ عزَّ وجلَّ، «فإنْ آمَنْتَ» وصَدَقْتَ «باللهِ» وبوَحدانيَّتِه تعالَى وأقرَرْتَ برُبوبيَّتِه؛ «دعَوْتُ اللهَ» تعالَى لكَ بالشِّفاءِ، فيكونُ ذلك سَببًا في شِفائِكَ، «فآمَنَ» جَلِيسُ المَلِكِ بالله، فدَعا له الغُلامُ، فشَفاهُ اللهُ مِن العَمى ببرَكةِ الإيمانِ باللهِ تعالَى، فجاء الجَلِيسُ إلى الملِكِ، فجَلَسَ معه على عادتِه إلَّا أنَّه في تلكَ المرَّةِ كان يُبصِرُ، فسَأله المَلِكُ: «مَن ردَّ عليك بَصَرَك؟» أي: عالَجَكَ، قال: «ربِّي» أي: ردَّه ربِّي الَّذي خَلَقَني وربَّاني، «فقال المَلِكُ: وَلَكَ ربٌّ غيري؟!» وهذا ادِّعاءٌ للأُلوهيَّةِ، فردَّ الجليسُ: «ربِّي وربُّك اللهُ» المعبودُ الحقُّ، فأخَذَ الملِكُ جَليسَه، فلم يَزَلْ يُعذِّبُه حتَّى دلَّ وأخبَرَ عن الغلامِ، فأمَر الملِكُ بالغلامِ، فجِيءَ به إليه، فقال له المَلِكُ: «أيْ بُنَيَّ» وهو نِداءُ إشفاقٍ ولُطفٍ، وقيل: تَحقيرٌ وإهانةٌ له، «قدْ بَلَغ مِن سِحْرِكَ» أي: مِن عِلمِك بالسِّحرِ ما استَطعْتَ به أنْ تَشفِيَ المرضى، وخاصَّةً الأمراضَ الَّتي دَواءَ

لهـا، فأجابَـه الغـلامُ أنَّـه لا يَشـفِي أحـدًا، إنَّمـا الَّـذي يَشْـفِي هـو اللهُ عـزَّ وجـلَّ، فأخَـذَ المَلِـكُ الصَّـبيَّ، «فلـم يَـزَلْ يعذِّبُـه» لِيَـدُلَّ علـى مَـن علَّمـه مـا هـو فيـه «حتَّـى دلَّ علـى الرَّاهِـبِ»، فأرسَـلَ الملِـكُ إلـى الرَّاهـبِ حتَّـى جِـيءَ بـه إلـى الملِـكِ، «فقِيـل لـه: ارْجِـعْ عـن دِينِـكَ» الَّـذي هـو التَّوحيـدُ، فـامتَنَع أشـدَّ الامتِنـاع عـن الرُّجـوعِ عـن دِينِـه، «فـدَعَا» الملِـكُ «بالمِنْشـارِ» وهـو أداةٌ لِنَشْـرِ الخَشَـبِ وقَطْعِـه، فوَضَـعه فـي «مَفْـرِقِ رأسِـه» أي: وسَـطَ الـرَّأسِ، «فشَـقَّه بـه» نِصـفينِ طُـولًا حتَّـى وَقَـع جانبـاه علـى الأرضِ، «ثُـمَّ جِـيءَ بجليسِ المَلِك» فحدَثَ معه مِثلُ ما حَدَث مع الرَّاهبِ.

ثُـمَّ جِـيءَ بـالغُلامِ» ولعـلَّ تـأخيرَه حتَّـى يَـرَى مـا فُعِـل بصـاحِبَيْه » فيرجِـعَ عمَّـا هـو عليـه، «فقيـل لـه: ارجِـعْ عـن دِينِـكَ» الَّـذي هـو دِيـنُ التَّوحيـدِ، فـرَفَض، فدَفَعـه الملِـكُ إلـى نَفَـرٍ مِـن أَتباعِـه وأعوانِـه، والنَّفَـرُ: الجَماعـةُ مِـن الرِّجـالِ، خاصَّـةً مـا بـيْن الثَّلاثـةِ إلـى العَشَـرةِ، وأمَـرَهم أنْ يَصـعَدوا بـه إلـى جَبـلٍ -حـدَّدَه لهـم- حتَّـى إذا بَلَغـوا قِمَّتَـه وأعْلـى مـا فيـه، أَلْقَـوه منـه ليَمـوتَ علـى الفـورِ، «فـإنْ رَجَـع عـن دِينِـه» قبْـلَ أنْ تُلقُـوه فـاترُكوه، «وإلَّا فـاطْرَحوه»، أي: فـأَلْقُوه مـن أعلـى الجبـلِ، «فـذَهَبوا بـه فصَـعِدوا بـه الجبـلَ» وطَلَبـوا منـه الرُّجـوعَ عـن دِينِـه، فتَضـرَّعَ إلـى اللهِ تعـالَى، وقـال فـي دُعائِـه: «اللَّهُـمَّ اكْفِنِـيهِمْ» أي: كُـنْ دافعًـا عنِّـي شَـرَّهم بالَّـذِي شِـئتَ مـن أنـواع الكفايـةِ مِـن مَكـرِكَ لهـم وحِفظِـكَ

لـــي؛ إمَّـــا بـــإهلاكِهم أو بغيـــرِه، «فرَجَـــف»، أي: تحـــرَّك واضْـــطَرَب «بِهـــم الجبـــلُ» حَرَكـــةً شَـــديدةً «فسَـــقَطوا» بســـببِ اضـــطرابِه وهَلَكـــوا، «وجـــاء» الغـــلامُ وعـــاد «يَمْشـــي إلـــى المَلِـــكِ» لِيُرِيَـــه آيـــةَ الله تعالَى بنَصْرِ أهلِ دِينِه.

فقـــال لـــه المَلِـــكُ: «مـــا فَعَـــل أصـــحابُك؟» والمـــرادُ بهـــم جُنـــودُه الَّـــذين ذَهَبـــوا بـــه لِيُلْقُـــوه، فقـــال الغـــلامُ: «كَفـــانِيهم اللهُ» تعـــالَى، وحـــاق بهـــم سُـــوءُ فِعلِهـــم، «فدَفَعـــه» الملِـــكُ مـــرَّةً أُخـــرى «إلـــى نَفَـــرٍ» آخَـــرِينَ مِـــن أتباعِـــه وأعوانِـــه، فقـــال: «اذْهَبـــوا بـــه فـــاحمِلوه فـــي قُرْقُـــورٍ» والقُرْقـــورُ: السَّـــفِينةُ العَظِيمـــةُ، «فتوسَّـــطُوا بـــه البحـــرَ»، والمـــرادُ بُلـــوغُهم أقْصـــى أعماقِـــه وبُعـــدُه علـــى اليابســـةِ، حتَّـــى إذا رَمَـــوه فيـــه غَـــرِقَ ولـــم يَســـتطِعِ النَّجـــاةَ، «فـــإنْ رَجَـــع عـــن دِينِـــهِ» قبْـــلَ أنْ تُلقُـــوه فـــاتْرُكوه وارْجِعـــوا بـــه وإنْ لـــم يَرْجِـــعْ عنـــه، فـــارْمُوه بقُـــوَّةٍ فـــي البحـــرِ، «فـــذَهَبوا بـــه» حتَّـــى بَلَغـــوا وَسَـــطَ البحـــرِ، فقـــال الغـــلامُ: «اللَّهُـــمَّ اكْفِنِـــيهِمْ بمـــا شـــئتَ، فانقَلَبَـــت بهـــم السَّـــفينةُ، فغَرِقـــوا، وفـــي رِوايـــةِ التِّرمـــذيِّ: «فـــانْطُلِقَ بـــه إلـــى البحـــرِ، فغَـــرَّقَ اللهُ الَّـــذين كـــانوا معـــه وأنْجـــاهُ»، وجـــاء الغـــلامُ يَمْشـــي إلـــى المَلِـــكِ، وسَـــأله الملِـــكُ عـــن جُنـــودِه، فـــأخبَرَه أنَّ اللهَ عـــزَّ وجـــلَّ قـــدْ كَفـــاهُ شَـــرَّهم وفـــي هـــذا نَصْـــرُ لمَـــن توكَّـــل علـــى الله سُـــبحانه وانْتَصَـــر بـــه وخـــرَج عـــن حَـــوْلِ نفْسِـــه وقُوَاها..

الخطبة الثانية

أيُّهَا المُؤمِنونَ : أخبَرَ الغلامُ المَلِكَ أنَّه لنْ يَستطيعَ قتْلَه، إلَّا إنْ فَعَلَ ما يَأمُرُه به الغلامُ، فسَألَه المَلِكُ عن هذا الشَّيءِ، فقال الغلامُ للملِكِ: «تَجمَعُ الناسَ في صَعِيدٍ واحدٍ»، أي: في أرضٍ ومَقامٍ واحدٍ، والمرادُ جمعُ النَّاسِ كلِّهم في أرضٍ واحدةٍ، «وتَصلُبُني» مِن الصَّلْبِ، وهو تعليقُ الإنسانِ للقَتْلِ «على جِذْعٍ» عُودٍ مِن أعوادِ الشَّجرِ، مِثلُ النَّخْلِ ونحوِه، «ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِن كِنانَتِي» وهي بَيتُ السِّهامِ وكِيسُه، «ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ» أي: وَسَطِ «القَوْسِ» وفي مِقبَضِها «ثُمَّ قُلْ» عندَ الرَّميِ: «بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ ارْمِني» أي: أطلِقِ السَّهمَ نَحْوي، «فإنَّك إذا فعلتَ ذلك قَتَلْتَنِي»، ففَعل المَلِكُ ما قاله الغُلام ثُمَّ قال: «بِاسْمِ الله ربِّ الغُلامِ» أطلَقَ السَّهمَ عليه، «فوَقَع السهمُ في صُدْغِه» وهو ما بينَ العَيْنِ إلى شَحْمَةِ الأُذُنِ، «فوَضَع» الغلامُ «يدَه في صُدْغِه» لِتَأَلُّمِه مِنَ السَّهمِ «فمات»، فقال الناسُ لَمَّا رَأَوُا الآيةَ العُظمَى الشاهِدَةَ بالوحدانيَّة لله سُبحانَه وتَعالَى: «آمَنَّا برَبِّ الغلامِ آمَنَّا برَبِّ الغُلامِ، آمَنَّا برَبِّ الغُلامِ» ثَلاثًا؛ تَأكيدًا على صِدقِ إيمانِهم.

أيُّهَا المُؤمِنونَ : فجاء إلى الملِكِ أحدُ أتباعِهِ وقال له: «أرأيتَ ما كُنتَ تَحْذَرُ؟» وهو خَشيةُ أنْ يُؤمِنَ النَّاسُ بدِينِ الرَّاهبِ والغلامِ وجَليسِ الملِكِ، وهو التَّوحيدُ للهِ تعالَى، «قد واللهِ نَزَلَ

بـــك حَـــذَرُكَ» وفـــي رِوايـــةِ التِّرمـــذيِّ: «أجَزِعْـــتَ أنْ خالَفَـــكَ ثلاثـــةٌ؟! فهـــذا العـــالَمُ كلُّهـــم قـــدْ خـــالَفوكَ» وهـــو إيمـــانُ النَّـــاسِ كلِّهـــم، فـــأَمَرَ الملـــك «بالأُخْـــدُودِ» وهـــو الحفـــرةُ العظيمـــةُ، «فـــي أَفْـــوَاهِ السِّـــكَكِ»، وهـــي مَـــداخلُ الطُّـــرُقِ وأوائلُهـــا، وإنَّمـــا شَـــقَّ الأُخـــدودَ علـــى مَـــداخلِ الطُّـــرقِ؛ لـــئلَّا يَـــتمكَّنَ النَّـــاسُ مِـــن الهـــروبِ، «وأَضْـــرَم» أي: أشـــعَلَ وأوقَـــدَ فـــي الأُخـــدودِ النِّيـــرانَ، وأمـــر الملـــك جنـــوده: «مَـــن لـــم يَرْجِـــعْ عـــن دِينِـــه» مِـــن الإيمـــانِ الَّـــذي صـــار إليـــه «فـــأَحْمُوه فيهـــا»، أي: أَلْقُـــوه كُرْهًـــا فيهـــا، أو قِيـــلَ لِمَـــنْ لـــم يَرجِـــعْ عـــن دِينِـــه: «اقْـــتَحِمْ» أي: النَّـــارَ فادْخُـــلْ فيهـــا بإرادتِـــكَ، «ففَعَلـــوا» مـــا أُمِـــروا بـــه مـــن الأُخـــدُودِ ومـــا بعـــدَه، واســـتَمَرُّوا كـــذلك «حتَّـــى جـــاءتِ امـــرأةٌ ومَعَهـــا صَـــبِيٌّ لهـــا» وهـــو الطِّفـــلُ الصَّـــغيرُ فـــي عُمـــرِ الرَّضـــاعِ، كمـــا صَـــرَّح بـــه عنـــدَ النَّســـائيِّ فـــي السُّـــننِ الكُبـــرى، فتَوقَّفـــتْ ولَزِمَـــتْ موضِـــعَها وكَرِهَـــتْ أن تَقَـــعَ بـــه فـــي النَّـــارِ، فنَطَـــق رَضـــيعُها وقـــال لهـــا: «يـــا أُمَّـــاهُ، اصْـــبِرِي» علـــى هـــذا العـــذابِ؛ فإنَّـــه يَـــؤُولُ إلـــى جَزِيـــل الثَّوابِ؛ «فإنَّكِ على» الدِّينِ «الحَقِّ»، أي: الإيمانِ والتَّوحيدِ.

قـــال اللهُ تعـــالى : (إِنَّ الَّـــذِينَ فَتَنُـــوا الْمُـــؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـــاتِ ثُـــمَّ لَـــمْ يَتُوبُـــوا فَلَهُـــمْ عَـــذَابُ جَهَـــنَّمَ وَلَهُـــمْ عَـــذَابُ الْحَرِيـــقِ * إِنَّ الَّـــذِينَ آمَنُـــوا وَعَمِلُـــوا الصَّـــالِحَاتِ لَهُـــمْ جَنَّـــاتٌ تَجْـــرِي مِـــن تَحْتِهَـــا الْأَنْهَـــارُ ذَلِـــكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ).